محطات تاريخية

قبل الحديث عن المكتبات عبر العصور لابد من الإشارة ولو باختصار إلى بعض المحطات التي كان لها الدور الحاسم في التطور الذي وصلت إليه هذه الأخيرة في وقتنا الراهن. فاختراع الكتابة ساهم في تدوين المعارف الإنسانية و حفظها، واختراع الورق وانتشاره سهل عملية التدوين وبالتالي إثراء المكتبات، وجاءت الطباعة كوسيلة مهمة لمضاعفة الإنتاج الفكري وتسهيل الوصول إليه.

1- اختراع الكتابة: يعتبر اختراع الكتابة الحد الفاصل بين ما قبل التاريخ والعصر التاريخي، فقبل هذا الاختراع كانت المعلومات عن تاريخ الإنسانية تعتمد على البقايا المادية التي وصلتنا من تلك الفترة[1].

و تشير الكثير من المصادر إلى أن بداية الكتابة كانت في بلاد مابين النهرين(العراق حاليا) والتي يعود تاريخها إلى مابين 3800-3500 ق.م، وكانت تسمى الكتابة المسمارية، والتي بدأت على شكل صور لما يكتب، ثم تطورت في حدود 3200ق.م إلى الطور الصوتي ب600 علامة مسمارية. أما الكتابة المصرية فقد نشأت في بلاد النيل في الحضارة المصرية وتنقسم حسب تسلسلها التاريخي إلى :

أ/ الخط الهيروغليفي: بدأ هذا الخط برسوم تمثل ما هو موجود في الطبيعة من حيوان أو نبات أو طيور أو إنسان، وظل مستعملا من 2900ق.م إلى 100 ق.م.[2]

ب/ الخط الهيراطيقي: بمعنى خط الكهنة، واستخدم في الشؤون العامة بعد تعذر استخدام الخط الهيروغليفي.

ج/ الخط الديميوطيقي: بمعنى الشعبي، نظرا لاستعماله بصورة واسعة في مختلف مناحي الحياة، وتمت به الكتابة في القرنين 10 و09 ق.م وبعد دخول المسيحية إلى مصر.

[1] - حمادة، محمد ماهر. مقدمة في تاريخ الكتب والمكتبات. ط1. بيروت: مؤسسة الرسالة؛ دار البشير، 1996.ص5.

أما الكتابة الأبجدية فقد ظهرت بعد تطور الكتابة من المقطع المصور إلى الحرف في نهاية الألف الثانية ق.م، وهي الكتابة السامية الألفبائية المشكلة من 22 حرفا و التي كانت في بداياتها غير متصلة كما هي عليه الآن، وتكتب من اليمين إلى اليسار[3].

2- مواد الكتابة: كانت الكهوف أولى الأماكن التي استخدمها إنسان ما قبل التاريخ لتسجيل كتاباته، ومع التقدم الحضاري استخدمت الصخور والأحجار كوعاء للكتابة كصخرة " بيهستون" التي كتبت عليها انتصارات داريوس الكبير في بلاد فارس[4].

أما الحضارات القديمة فاستخدمت المواد التي كانت متوفرة في البيئة المحلية، حيث عرفت بلاد مابين النهرين الألواح الطينية التي تحضر بعد جمع كمية من التربة الخالية من الشوائب ليضاف إليها الماء لتصبح عجينة تحول عادة إلى قوالب على شكل مستطيل، ثم تجفف قليلا ليكتب عليها فيما بعد بأقلام غير حادة من المعدن أو القصب أو النحاس برأس مثلث حيث سميت هذه الكتابة بالخط المسماري[5]. وكانت الألواح الطينية تعرض للشمس أو تحرق في أفران خاصة بعد الانتهاء من الكتابة عليها.

و في مصر فقد عرف ورق البردي كوعاء للكتابة حيث كان ينمو في مستنقعات الدلتا ليصل طوله ما بين مترين وربع إلى ثلاثة أمتار ونصف، واستخدم وجه واحد من ورق البردي للكتابة عليه وكان يأخذ شكل لفائف، وأقدم لفافة بردية معروفة تعود إلى عام 2400 ق.م[6].

أما استخدام الرق وهي جلود الحيوانات كوعاء للكتابة وتجهيزها لتصبح صالحة لذلك فلم يبدأ إلا في القرن الثالث ق.م ، والفضل في ذلك يعود لمدينة برغامم في آسيا الصغرى(تركيا حاليا) والتي أخذت تسميتها منها وهي Parchemin نسبة إلى مدينة Pargamineum أي برغامم. أما أفضل أنواع الجلد فهي جلد العجول والضأن ثم الماعز. ولم يقتصر هذا الاستخدام على المنطقة التي عرف باسمها بل استخدم في مختلف البلدان عكس البردي الذي وجد في مصر لأسباب طبيعية ومناخية ، واقتصر استعمال الرق في البداية على الرسائل والوثائق ليتوسع فيما بعد إلى صناعة الكتب.

---

[3] – الجواهري ، خيال. موجز تاريخ الكتب والمكتبات.ط2. دمشق: جامعة دمشق، 2007. ص ص 14-18.

[4] – حمادة، محمد ماهر. مقدمة في تاريخ الكتب والمكتبات. ص24.

[5] – الجواهري ، خيال. نفس المرجع. ص ص18-19.

[6] – حمادة، محمد ماهر. نفس المرجع. ص 25.

أما الصينيون الذين اخترعوا الورق، فقد استخدموا الخشب للكتابة قبل هذا الاختراع ، إضافة إلى الحرير الذي استعمل بشكل خاص لتدوين مؤلفات الفيلسوف كونفوشيوس[7].

وفي سنة 1957 تم اكتشاف بعض القطع من الورق في قبر شخص صيني يدعى Pa-ch.iao في مدينة سيان بمقاطعة شينسي الصينية، وحدد تاريخ هذا القبر مابين 140-187 ق.م ن مما يعني أن هذه الصناعة كانت موجودة في هذا التاريخ أو حتى قبله . وفي زمن الفتوحات الإسلامية أسر المسلمون أثناء فتحهم لبلاد ما وراء النهر وهي بلاد آسيا الوسطى التي كانت خاضعة للسيطرة الروسية، بعض الصينيين الذين كانوا يعرفون صناعة الورق التي علموها للمسلمين الذين انتبهوا لأهمية هذه المادة كوعاء للكتابة ، حيث أسسوا أول مصنع للورق في سمرقند عام 751م/ 133هـ، ثم أسس أول مصنع للورق في بغداد عام 794م ثم انتقلت صناعته إلى دمشق ، ثم مصر التي حل بها مكان البردي سنة 850م. ومع منتصف القرن 12م وصل الورق إلى شمال إفريقيا والمغرب لينتقل بعدها إلى أوروبا التي وجدت بها أقدم وثيقة مكتوبة على الورق تعود إلى 1109م، وهي عبارة عن مرسوم صادر عن كونت روجر حاكم صقلية النور ماندي كتبت باللاتينية والعربية[8].

كما وجدت مواد أخرى للكتابة كالعسب وهو جريد النخل والرقوق وهي الحجارة البيضاء، والعظام وخاصة العريضة منها كعظم الكتف والأضلاع والقرطاس الذي يعتقد أنه من أنواع البردي أو أي مادة أخرى.

أما الأدوات التي استعملت للكتابة فهي تلك الآلات الحادة ذات الرأس المدبب التي استخدمت للكتابة على الألواح الطينية، وقصبة ريش الطيور الكبيرة كالغراب والنسر التي استخدمت للكتابة على الرق والقلم الذي كان يصنع من القصب و استخدم للكتابة على البردي وعلى الرق، إضافة إلى الحبر والدواة أو المحبرة وهي وعاء يملأ بحبر الكتابة وكانت تصنع من الخشب أو المعدن. وكانت الأقلام تحفظ في علب عرفت بالمقلمة[9].

3- الطباعة: يعد اختراع الطباعة نقطة تحول في تاريخ البشرية، حيث أعطت دفعا قويا للمعرفة الإنسانية بتضاعف عدد الكتب التي كانت من قبل تنسخ باليد، مما ساهم في نشر

---

[7] - حمادة، محمد ماهر. مرجع سابق. ص ص 29-30.

[8] - المرجع نفسه. ص ص 69-70.

[9] - الجواهري ، خيال. مرجع سابق. ص ص 28-29.

الثقافة وتطور المكتبات. وترجع المصادر المتوفرة الطباعة بالحروف المتحركة إلى الصينيين والكوريين الذين عرفوها في أواسط القرن الحادي عشر، بينما عرفها الأوروبيون بالألواح الخشبية، حيث تكتب الصفحة المراد طبعها على لوح خشبي مستو وناعم بحروف مقلوبة بعد حفر الأجزاء الخالية من الكتابة، فتصبح هذه الأخيرة واضحة، كما يرى بعض المؤرخين أن هذه الألواح الخشبية وجدت بالصين قبل أوروبا بفترة قصيرة[10].

ومع العيوب التي شابت الطباعة بالألواح الخشبية جاء التفكير في حفر كل حرف على حدة، لتجمع الحروف المتفرقة، فتعطي كلمات متناسقة مع إمكانية استخدام هذه الحروف لطباعة كتاب آخر.

وقد صنع يوحنا غوتنبرغ حروفه الأولى من النحاس، وكانت محاولته الأولى في 1436م لتنفذ في 1450م، ويكون الإجماع على أن غوتنبرغ هو مخترع الحروف المتفرقة.

وكانت المطبوعات الأولى أشبه بالمخطوطات، غير أن استعمال الحروف الرومانية بدل القوطية أزال هذا الالتباس. وأول كتاب طبع بهذه الحروف المتحركة هو التوراة ذات الاثنين والأربعين سطرا الذي شرع فيه غوتنبرغ عام 1450م. وفي حوالي 1470م افتتحت مطبعة في روما، وفي عام 1474م عرفت إنجلترا الطباعة، وفي 1472م ظهر أول كتاب مطبوع بمدينة أنفرس البلجيكية، وفي 1473م طبع في أوترخت " تاريخ العهدين القديم والجديد" فكانت أول مدينة هولندية عرفت الطباعة، كما ظهرت أول مطبعة في فيينا بالنمسا عام 1482م، أما بولندا فقد تأسست في عاصمتها وارسو أول مطبعة عام 1578م، أما السويد والدانمارك فعرفتا الطباعة أواخر القرن الخامس عشر و النرويج في 1644م. أما جنوب أوروبا فعرف الطباعة منذ 1474م بإسبانيا وبعدها بقليل انتقلت إلى البرتغال. وعرفت فرنسا طباعة أول كتاب بها عام 1470م وهو مجموعة الرسائل اللاتينية. وفي تركيا ظهرت الطباعة في أواخر القرن الخامس عشر بالحروف العبرية. ويعتبر لبنان أول بلد عربي يعرف الطباعة بإنشاء أول مطبعة في 1610م بدير قزحيا الذي أحضر مطبعة وحروفا سريانية من روما، أما في سوريا فكانت مدينة حلب أول من دخلت إليها المطبعة بفضل البطريرك أثناسيوس دباس عام 1706م.

[10] – الجواهري، خيال. مرجع سابق. ص147.

أما مصر فعرفت الطباعة مع الحملة الفرنسية من 1898م إلى 1801م، ودخلت الطباعة العراق وفلسطين في نفس السنة أي 1830م وبأمر من السلطان عبد الحميد أنشئت أول مطبعة في صنعاء باليمن عام 1877م وفي 1882 م أنشأت السلطة العثمانية مطبعة بالحجاز[11].

أما في الجزائر فقد أدخلت المطبعة مع الاستعمار الفرنسي، وكان ذلك في 26 جوان 1830م، ثم ما لبثت المطابع أن انتشرت في المدن الكبرى كقسنطينة ووهران وعنابة[12].

أما المغرب الأقصى فقد عرف الطباعة على الحجر بداية من 1865م بعد أن دخلت الطباعة التبوغرافية بالحروف العبرية منذ أوائل القرن 16 مدينة فاس على يد اليهود المهاجرين من الأندلس، ثم جاء دخول المطبعة التيبوغرافية بحروف عربية على يد شخص سوري يدعى أحمد يمني سنة 1905م والذي استقر في مدينة فاس[13].

أما تونس فقد عرفت المطبعة الحجرية وكان أول كتاب يطبع فيها بهذه الطريقة هو " مسامرة قرطاجة" سنة 1849م، مع العلم أن دخولها بشكل رسمي كان في عهد المشير محمد باي عام 1857م[14].

---

[11] – صابات، خليل. تاريخ الطباعة في الشرق العربي. ط2، القاهرة: دار المعارف، 1966. ص ص 14–19. و حمادة، محمد ماهر. مقدمة في تاريخ الكتب والمكتبات. ص 122(فيما يتعلق بتاريخ الطباعة في فرنسا).

[12] – صغيري. ميلود، رمضان، الخامسة. الطباعة والتطور الكرونولوجي لمصادر المعلومات بين الانتشار وحتمية الوسائط. في: مجلة الإحياء ، مج 21، ع 29، أكتوبر 2021، ص 1041.

[13] – الكندور، لطيفة. الطباعة والنشر بالمغرب: 1282–1376هـ/1865–1956م. الرباط: دار أبي رقراق ، 2014. ص99 ، 157، 160.

[14] – بنشريفة، محمد. حول تاريخ الطباعة العربية في المغرب العربي خلال القرن التاسع عشر (في ندوة تاريخ الطباعة العربية حتى انتهاء القرن التاسع عشر ، 28 أبوظبي–29 جمادى الأولى 1416هـ/22–23 أكتوبر 1995م). ص ص 218–219.